حملتا فرنسا على مصر والجزائر

"هدف واحد...، امتلاك مفتاحي الشرق وإفريقيا

الأستاذ الدكتور / إبراهيم لونيسي
جامعة سيدي بلعباس
الجزائر

Abstract :

Many historical studies were written on the French Campaign on Egypt in 1798 and Algeria in 1830, although there is no historical study comparing the two campaigns despite the great similarity between them in terms of goals and dimension .

Through this study we will try to compare between these two campaigns by asking a number of questions, most notably :

What are the most important commonalities between the two campaigns?

What are the most prominent points of differences ?

Why did France fail in its military campaign against Egypt and succeeded in Algeria?

بدون شك أنّ المكتبة التاريخية العربية تزخر بالعديد من الدراسات التاريخية عن الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798، وكذلك عن الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830. ولكن على حد علمي المتواضع أنّ هذه المكتبة تفتقر إلى دراسة تاريخية مقارنة بين هاتين الحملتين لأنّ كلّ الذين تناولوا هذين الموضوعين بالدراسة والتحليل تقريبا لم يفكروا

إجراء ولو مقارنة بسيطة بين هاتين الحملتين، خاصة أنّ موضوعا مثل هذا يثير العديد من التساؤلات وهذا ما حدث معي بالفعل.

تساؤلات:

بمجرد أن وضعت تصورا للموضوع وجدت نفسي داخل دوامة من التساؤلات، ولقد كانت بدايتها عندما فرغت من قراءة الجزء الخاص الذي سجله الجبرتي في كتابه المعنون بـــ "تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار" – الجزء الثاني –، عن أحداث الحملة الفرنسية على مصر ووقائعها. والذي أورد فيه مجموعة البيانات التي وجهتها قيادة الحملة إلى الشعب المصري. فكان أول سؤال تبادر إلى ذهني هو ما مدى علاقة هذه البيانات بتلك التي وجهتها قيادة الحملة الفرنسية للشعب الجزائري وهل الإدارة الفرنسية استعملت نفس محتويات تلك البيانات في مخاطبتها للشعب الجزائري؟ وهل استفادت فرنسا من نتائج حملتها على مصر ووظفت تلك النتائج في حملتها على الجزائر؟ كيف استقبلت فرنسا الموقف الجزائري من حملتها على مصر ؟ وهل يمكن اعتبار الحملة الفرنسية على الجزائر وجها من أوجه الانتقام من الجزائر بسبب موقفها من الحملة على مصر؟ وغيرها من التساؤلات الكثيرة. ولكن أودّ الإشارة هنا إلى أن هدفي من هذه الدراسة ليس تسجيل وقائع وأحداث الحملتين، بل هو استخلاص أهمّ القواسم المشتركة التي تجمع بين هاتين الحملتين ومواقع الاختلاف. وحتى يتسنى لي دراسة الموضوع بشكل جدي وتحقيق كلّ ذلك ارتأيت إتباع الخطوات التالية:

1. لماذا الحملة الفرنسية على مصر؟.
2. قراءة تحليلية في بعض البيانات الفرنسية الموجهة للمصريين.
3. لماذا الحملة الفرنسية على الجزائر؟
4. قراءة تحليلية في بعض البيانات الموجهة للجزائريين.
5. لماذا فشلت فرنسا في حملتها على مصر، ونجحت مع الجزائر؟

6. الخاتمة (وهي جملة النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسة).

1. لماذا الحملة الفرنسية على مصر؟

إنّه أول سؤال ينبغي على الدارس طرحه في تناوله لهذا الموضوع، لأنّ هذه الحملة لم تكن مجرد نزوة عابرة اجتاحت نابليون بونابرت في لحظة من لحظات عمره السياسي والعسكري، بل أنّ فكرة هذه الحملة يعود ظهورها إلى ما قبل عهد نابليون بل وحتى الثورة الفرنسية (1789)، فهذه الحملة ما هي إلا نتاج الحركة التوسعية الاستعمارية الفرنسية.

والتي يمكن لنا إعادة جذورها إلى عهد الملك لويس الرابع (خلال القرن السابع عشر) على الأقل. ومما زادها رسوخا في أذهان حكام فرنسا هو ذلك التنافس الحاد الذي كان بين فرنسا وبريطانيا على جميع الأصعدة خاصة العسكرية والاقتصادية، فلقد كانت فرنسا تحلم باحتلال مصر وفلسطين وقبرص بهدف التحكم في أهمّ المعابر الأساسية نحو الشرق الأقصى والهند وغيرها من المناطق الأسيوية، وما فعله نابليون في هذا الشأن هو وضع هذه الفكرة محل التنفيذ والتطبيق، وذلك بعد ضغوطه الكثيرة رفقة صديقه (تاليران) على حكومة الإدارة الفرنسية.

لقد وصل التنافس الفرنسي البريطاني على مصر إلى أوج قمّته في الثلث الأخير من القرن الثاني عشر. وهذا بعد تلك الاتفاقية التي وقعتها شركة الهند الشرقية البريطانية مع حكام مصر سنة 1775 بهدف تنشيط طريق تجاري بين الشرق والغرب عبر مصر.

ولقد أثارت هذه الاتفاقية مخاوف فرنسا مما دفع بمسئوليها إلى القيام بمجهودات كبيرة لعقد معاهدة مشابهة لتلك ، ولقد تمكنت من تحقيق ذلك سنة 1785 عندما نجح المبعوث الفرنسي (تروغوت) في عقد ثلاث اتفاقات مع مراد بك بغرض تشجيع ورود السفن الفرنسية والتجار الفرنسيين إلى منطقة السويس وتحديد الرسوم الجمركية. وحماية الفرنسيين في الأراضي المصرية"[1].

وهذا كلّه جعل كلّ دولة متخوفة من الأخرى وأخذت تفكر فيما قد يحدث لو سيطر على مصر الطرف الآخر. ولقد ازداد هذا التخوف بعد أن اعترفت الدولة العثمانية رسميا بالجمهورية الفرنسية سنة 1794 وحدوث تقارب كبير بين الدولتين. وهذا أخاف كثيرا بريطانيا من أن تتحول مصر – التي كانت ولاية عثمانية- إلى قاعدة فرنسية لمواجهة المصالح البريطانية. ولقد دفع كلّ هذا بريطانيا إلى التوقيع على معاهدة جديدة مع المماليك في مصر سنة 1794 تعطي لبريطانيا تسهيلات جمركية وتسهيلات في المواصلات والانتقال، إلاّ أنّ هذه المعاهدة لم تصبح شرعية عندما رفض السلطان العثماني سليم الثالث التوقيع عليها"[2]. ويبدو أنّ انبهار هذا السلطان بالثورة الفرنسية هو الذي حال بينه وبين التصديق على المعاهدة فالثورة الفرنسية تعد من الأحداث البارزة التي راقبها العثمانيون عن كثب فأثرت فيهم تأثيرا عميقا وأدّى هذا إلى احتكاك الدبلوماسيين الفرنسيين أكثر من ذي قبل بالموظفين وبرجال الدولة العثمانية[3].

للتجار دورهم:

ولكن كلّ هذا لم يثن من عزيمة البريطانيين في الدفاع عن مصالحهم الكثيرة في مصر، وبدون شك أنّ هذا هو الذي دفع بهم إلى تحريض المماليك لمضايقة التجار الفرنسيين في الكثير من المناطق المصرية مستغلين في ذلك ميل المماليك إلى جانبهم في تلك الفترة، وأمام هذه التطورات تعالت أصوات الرعايا الفرنسيين عموما والتجار خصوصا في مصر مطالبة حكومتهم في باريس بضرورة التدخل لوضع حد لهذه المضايقات. وكانت تلك هي الذريعة التي تبحث عنها الحكومة الفرنسية كي تبرر بها حملتها العسكرية على مصر، والتي كانت تخطط لها منذ زمن ليس بالقصير. كما أشرنا إلى ذلك في بداية هذه للدراسة، وهذا ما ستفعله كذلك في حملتها العسكرية على الجزائر، حيث كانت تنتظر الظروف الملائمة والذريعة المناسبة.

لقد كلفت الحكومة الفرنسية قائدها العسكري نابليون بونابرت بالتحضير للحملة بشرط أن يتم كلّ ذلك في سرية تامة بهدف توفير الشروط الضرورية لإنجاح الحملة وكذلك مفاجأة الإنجليز فهل تحقق ذلك؟

قام نابليون بتكوين جيش أطلق عليه اسم "جيش الشرق" ويضم ستة وثلاثين ألف مقاتل أغلبهم من العساكر المدربين في الحروب التي جرت بين فرنسا وايطاليا. إلى جانب عشرة آلاف بحار يحملهم أسطولا يتكون من ثلاثين سفينة حربية[4] ولقد تم تحديد أهداف الحملة مسبقا في باريس وتتمثل في:

1. الاستيلاء على مصر، وجعل سيادة فرنسا مطلقة على البحر الأحمر، وطرد الانجليز من مواقع تواجدهم في تلك المنطقة.
2. وصل البحرين الأحمر والمتوسط بقناة.

أقلعت الحملة من عدّة موانئ فرنسية وايطاليا سرا بتاريخ 19 ماي 1798 متوجهة نحو ميناء الإسكندرية، وزيادة في السرية والاحتياط مرت الحملة من مالطة واستولت عليها، ويبدو أن الهدف من ذلك هو التمويه على بريطانيا ومخادعتها بأنّ الحملة لا تقصد مصر، ولكن رغم كلّ ذلك انكشف كلّ شيء، إذ قامت الحكومة البريطانية بإرسال مجموعة من سفن أسطولها إلى السواحل المصرية بقيادة (نيلسون) الذي حذر المسئولين المصريين في الإسكندرية وأعيانها من حملة عسكرية فرنسية خرجت من فرنسا للسيطرة على مصر واحتلالها، إلاّ أنّ المماليك لم ينصتوا لتحذيرات نيلسون وأهملوها. ويذكر الجبرتي عن هذا أنّ حاكم الإسكندرية محمد كريم لم يستمع لما قاله الانجليز وظنّ أنّها مكيدة، وأجابهم بخشونة كما أنّ الأمراء اعتزوا بقوّتهم، وزعموا أنّه إذا جاءت جميع الإفرنج لا يقفون في مقابلتهم وأنّهم يدوسونهم بخيولهم[5] ونرى هنا مدى تشابه الوقائع والأحداث بين الحملة الفرنسية على مصر والجزائر وخاصة في قضية العلم بأمر الحملة قبل حدوثها، وفي عدم الاستعداد لمواجهتها

بل واغترار المسئولين في الدولتين بقوّاتهما، وكلّ هذا أدّى إلى هزيمة نكراء لمصر وللجزائر وإن كانت عواقب هاتين الهزيمتين مختلفة في الدولتين.

2. قراءة تحليلية في بعض البيانات الفرنسية الموجهة للمصريين:

لقد نجح الجيش الفرنسي من النزول في الإسكندرية مع فاتحة شهر جويلية وخلال الأسابيع الأول من هذا الشهر تمكن من الوصول إلى القاهرة، ولتحقيق السيطرة الكاملة على مصر دون مقاومة ودون حدوث اصطدامات قام نابليون بتوجيه بيان للشعب المصري شرح له فيه لأسباب التي دفعته إلى القيام بهذا العمل ويمكن لنا تلخيص محتوياته في النقاط التالية"[6].

- إنّ السبب الذي دفعه إلى القيام بهذه الحملة هو من أجل تأديب المماليك الذين تسلطوا على مصر وشعبها منذ زمن بعيد، والذين يعاملون التجار الفرنسيين بكلّ إذلال واحتقار، وكذلك بهدف إنقاذ الشعب المصري من ظلم المماليك وطغيانهم.
- إنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي حكم على هؤلاء المماليك بانقضاء دولتهم بضرورة زوالها، فإنّ رب العالمين القادر على كلّ شيء، فإنّه قد حكم على انقضاء دولتهم.
- عدم مساس الحملة بممتلكات المصريين ومعتقداتهم الدينية وطلب نابليون من العلماء والقضاة وأعيان البلاد أن يخبروا المصريين بأن الفرنسيين كذلك مسلمون وأنّه هو شخصيا – أي نابليون– يعبد الله أكثر من المماليك وأنّه يحترم القرآن والرسول محمد •.
- محاولة التغرير بالمصريين عندما أخبرهم بأنّه سيفتح لهم المناصب السامية والمراتب العالية في الحكم والتي كانوا محرومين منها في عهد المماليك.

وبعد أشهر قليلة من صدور هذا البيان قام نابليون بإصدار بيان آخر، وهذا البيان جاء صدوره بعد أن رأى نابليون رفض الشعب المصري للوجود الفرنسي بينهم لهذا جاء ممزوجا بين الترهيب والترتغيب وأهمّ محتوياته"[7]:

- إنّ نابليون سيكون رحيما عطوفا على الشعب المصري وهذا بفضل من الله.

- إنّ كلّ الفتن التي حدثت في مصر– ويقصد بالفتن مقاومة الشعب للجيش الفرنسي– منذ أنّ وصلت الحملة هي من إشعال مجموعة من الأشرار، إلاّ أنّ الله أهلك هؤلاء الأشرار بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة.
- أنّ كلّ من يعارض نابليون من المصريين فهو في ذلك يعارض قضاء الله وقدره: (العاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله وإرادته وقضائه ومن يشك في ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة).
- مخادعة الشعب والكذب عليه وذلك بإخباره أنّ كلّ ما حدث في مصر من أحداث هذه الحملة ذكره الله في القرآن الكريم.

ومن خلال كل هذا نرى مدى تركيز قيادة الحملة الفرنسية على الإسلام وتوظيفها له توظيفا مزيفا بهدف إرهاب الشعب المصري، وجعله يخضع لها خضوعا تاما، وأن لا يشور عليها، وسنرى فيما بعد مدى التطابق الكبير الموجود بين هذه البيانات و تلك الموجهة للشعب الجزائري منذ 1830 .

3. لماذا الحملة الفرنسية على الجزائر؟

إذا كانت الحملة الفرنسية على مصر قد جرت على هذا المنوال فكيف كان الأمر مع الجزائر ؟ ، إنّ الذي حدث مع الجزائر لا يختلف كثيرا عن الذي حدث مع مصر. فلقد كانت الجزائر محط أنظار العديد من الدول الاستعمارية منذ القرن السادس عشر على الأقل، والدليل على ذلك هي تلك الحملات العسكرية الكثيرة التي شنت على الجزائر من الدول الأوروبية سواء منفردة أو مجتمعة، إلاّ أنّ أكبر الدول الأوروبية طمعا في الجزائر هي فرنسا التي قامت بوضع العديد من المشاريع لاحتلال الجزائر، ولكن كلّها كانت تبوء بالفشل بسبب القوّة العسكرية التي كانت تتمتع بها الجزائر في تلك الفترة. ففي عهد لويس الرابع عشر مثلا قامت بشن حوالي عشر غارات عسكرية على الجزائر في الفترة ما بين (1688/1663) كما تم في

عهد لويس الخامس عشر دراسة كيفية تنفيذ المشروع المسمى "مذكرة لتخريب الجزائر" وذلك سنة 1763.

كما أنّ نابليون بونابرت فكر جديا في احتلال الجزائر، وذلك من خلال وضع عدّة مشاريع أولها كان سنة 1802، وآخرها سنة 1808 عندما طلب نابليون من وزير بحريته أن يفكر في خطة لغزو الجزائر بحريا وبريا وكذلك إرساله الرائد بوتان إلى الجزائر ليعد من خلال إقامته في الجزائر تصورا عاما لأمثل طريقة يتسنى من خلالها احتلال الجزائر.

وينبغي على الدارس لهذه المشاريع أن لا يدرسها بعيدا عن ذلك التنافس الشديد الذي كان بين فرنسا وبريطانيا. وهناك أدلة كثيرة دفعتني إلى إصدار هذا الحكم وأبرزها على الإطلاق- وهذا حسب اعتقادي- هو مرور نيلسون على السواحل الجزائرية أثناء خروج الحملة النابليونية إلى مصر، فهذا المرور لم يكن بريئا كما أنّه يطرح العديد من التساؤلات أبرزها ما هو السبب الحقيقي لهذا المرور بدون شك أنّه ليس هو ذلك الذي ذكره المؤلف الأمريكي جون ب.وولف عندما قال أنّه جاء لدعم قنصل كان قد أساء التقدير عندما دعا النساء المسلمات إلى بيته[8] بل هو تخوف بريطانيا من قيام فرنسا بإرسال جزء من أسطولها إلى الجزائر بهدف احتلالها.

كما أنّ الدارس هنا يتساءل عن العلاقة الموجودة بين التفكير النابليوني طيلة عشر سنوات تقريبا لاحتلال الجزائر، والموقف الذي وقفته الحكومة الجزائرية من حملة نابليون على مصر، والمتمثل في إعلان الجزائر الحرب على فرنسا وإرسال جزء من أسطولها لدعم الأسطول العثماني في مواجهته للجيش الفرنسي في مصر بل والأكثر من ذلك هو قيام الجزائر بإعطاء تلك الامتيازات التي كانت تتمتع بها فرنسا في الجزائر لعدوتها الأوروبية اللدودة انجلترا، ويعتبر هذا العمل إهانة كبيرة لنابليون من الحكومة الجزائرية.

بدون شك أنّه لا يمكن لأي دارس أن يدرس المشاريع النابليونية لاحتلال الجزائر بعيدا عن كلّ هذا، بل وحتى الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830 لا يمكن لنا أبدا دراستها بعيدا عن هذا الموقف البطولي الذي وقفته الجزائر اتجاه الحملة الفرنسية على مصر، لهذا نجد شروع فرنسا جدّيا في البحث عن الذريعة والحجة التي ستستعملها في احتلالها للجزائر مع بدايات القرن التاسع عشر بسبب الظروف الصعبة والمتدهورة التي أصبحت تعيشها الجزائر خلال هذه الفترة.

ولقد نجحت فرنسا في إيجاد الشخص المناسب الذي سيخلق لها هذه الذريعة ألاّ وهو القنصل دوفال الذي كان شخصا بارعا في أعمال الغش والرشوة وفساد الذمة، والذي عمل طيلة الفترة التي قضاها في الجزائر 1827/1815 على تنفيذ مؤامرة متفق عليها مع رجال الحكم في فرنسا بهدف خلق أي ذريعة لإعلان الحرب ضد الجزائر قصد الاستيلاء عليها، وهناك العديد من الأدلة التي تبرهن لنا على ذلك ولقد سبق لي شرحها في إحدى دراساتي السابقة[9]، وبدون شك أنّ دوفال تلقى من مسؤوليه في باريس أمرا بتفجير المؤامرة مع منتصف سنة 1827، وذلك عندما أصبحت الجزائر بدون أسطول بعد تحطمه في معركة نافارين لأنّ فرنسا أصبحت متأكدة من أنّ الجزائر ستكون عاجزة عن صد أي هجوم عسكري يشن عليها، فكانت حادثت المروحة المتبوعة باحتلال الجزائر.

ولقد تم تكليف دي بورمون بالتحضير للحملة فقام بتشكيل جيش أطلق عليه اسم "الجيش الإفريقي"، وكان يتكون من سبعة وثلاثين ألف جندي منهم حوالي واحد وثلاثين ألف من المشاة وكان خروج الحملة من ميناء طولون يوم 25 ماي 1830 لتصل إلى سواحل سيدي فرج في منتصف شهر جوان ولتدخل الجزائر العاصمة في 5 جويلية 1830.

4. قراءة تحليلية في بعض البيانات الموجهة للجزائريين:

لقد وجهت القيادة الفرنسية أول بيان للجزائريين قبيل نزول الحملة إلى البرّ الجزائري، وهو بيان لا يختلف كثيرا في محتوياته الرئيسية عن ذلك الذي وجهه نابليون للشعب المصري، وأهمّ محتويات هذا البيان"[10]:

- أنّ مجيء الجيش الفرنسي إلى الجزائر يهدف إلى تأديب الحكام الأتراك في الجزائر وعلى رأسهم الداي حسين بسبب إهانتهم للعلم والشرف الفرنسيين وذلك عندما ضرب الداي حسين القنصل الفرنسي دوفال بالمروحة.
- زعم الفرنسيون للجزائريين أنّهم قادمون لتحريرهم وتخليصهم من الظلم والبطش التركي المسلط على رقابهم منذ زمن بعيد.
- وعد الجزائريين بأنّ القيادة الفرنسية ستحترم معتقداتهم الدينية وأنّها لن تمس ممتلكاتهم بأي سوء.
- تشويه صورة الداي حسين في أعين الجزائريين حتى لا يهبوا لمحاربة الجيش الفرنسي الذي يدعى أنّه جاء لإنقاذهم من هذا الحاكم الطاغية.
- تهديد الجزائريين وترهيبهم بأنّ عقابا شديدا سينزل عليهم، وأنّ عذابا عظيما سيقع عليهم من عند الله إن اختاروا محاربة فرنسا ومقاومتها، لأنّ هذا الجيش النازل بأرض الجزائر ما هو إلاّ جيشا مبعوثا من عند الله.

وعلى غرار هذا البيان والبيانات الأخرى الكثيرة التي وجهت للجزائريين من حكام فرنسا في الجزائر كلّها لا تخرج عن هذا الإطار الذي يصور للجزائريين أنّ الوجود الفرنسي في أوساطهم ما هو إلاّ قضاء وقدر، وبالتالي فإنّه لا تجوز محاربتهم، لأنّ محاربتهم هو محاربة لقضاء الله وقدره وأنّه بفضل هذا القضاء والقدر ستبقى فرنسا في الجزائر ولا يمكن لها أبدا أن تترك هذا القطر إلاّ بإرادة الله فقط، فهاهو ذا مثلا الجنرال كلوزيل يقول مخاطبا الشعب الجزائري سنة 1835 قائلا لهم أنّه يجب عليهم الخضوع للفرنسيين الأقوياء لأنّ

الدين الإسلامي الذي يدينون به هو الذي يأمرهم بذلك "اعلموا أنّ ديانتكم هي التي تعلمكم الامتثال إلى القوة، كما نجد نابليون الثالث يشير إلى هذه القضية في خطبته التي ألقاها على الجزائريين أثناء زيارته الأولى للجزائر خلال شهر سبتمبر 1860 حيث يقول "ولا شك أنّ الله تعالى مهما سلط جيشا على بلد ألا لوجهين أحدهما أمّا تأديبا وزجرا وأمّا رحمة وأجرا وحقيق أنّ نصرة الجنود الفرانساوية على هذا الإقليم لا تكون ألا رحمة وأجرا للعباد..".

5. لماذا فشلت فرنسا في حملتها على مصر، ونجحت مع الجزائر؟

أن أبرز ما يلاحظه الدارس لهذا الموضوع هو فشل الحملة الفرنسية على مصر بعد مرور أقل من ثلاث سنوات عليها (1801/17498) وذلك على عكس ما حدث بالنسبة للجزائر، إذ أنّ الحملة نجحت وتمكنت فرنسا من أن تمكث في الجزائر أكثر من قرن وربع قرن، وهذا يدعو إلى التساؤل عن السبب في ذلك، وعن الأسباب التي جعلتها تفشل في مصر وتنجح في الجزائر، لأنّه بدون شك أنّ نجاحها في الجزائر لا يعود إلى كوّن الشعب الجزائري قبل ورضي بالحملة الفرنسية، لأنّ الشعب الجزائري قاوم بكلّ عنف وشراسة لاحتلال الفرنسي منذ الأيّام الأولى لنزوله في سيدي فرج، وظل يقاومه إلى غاية 1962، كما أنّ فشلها في مصر لا يعود إلى كون الشعب المصري قاوم هذه الحملة حتى إخراج الجيش الفرنسي من أرض مصر ولكن أنا هنا لا أقلل من الدور الذي لعبه الشعب المصري في مقاومة الحملة الفرنسية على مصر، ولكن هذه المقاومة لم تكن العامل الأساسي والوحيد في إفشال الحملة، إذن فما هي الأسباب الحقيقية التي أدّت إلى ذلك؟

يمكن لنا إبراز هذه العوامل في النقاط التالية:

1. رفض الشعب المصري لهذه الحملة وذلك على شكل سلسلة من المفاوضات التي قام بها هذا الشعب ضد الجيش الفرنسي، ولقد ازداد هذا الرفض حدّة عندما اكتشف الشعب

المصري خديعة نابليون الذي كان قد أعلن أنّه صديق للسلطان العثماني، وكان هذا الاكتشاف عندما قام السلطان العثماني بإعلان الحرب ضد فرنسا وإرسال أسطوله البحري إلى عرض السواحل المصرية لمحاربة الجيوش الفرنسية هناك، والمعروف أنّ الأسطول الجزائري لعب دورا هاما في تدعيم الأسطول العثماني في محاربته للجيش الفرنسي، وهذا على عكس ما حدث مع الشعب الجزائري الذي أعلن رفضه للحملة منذ البداية ولكنّه وجد نفسه وحيدا، إذ أنّ الدولة العثمانية التي كانت تدعى أنّ الجزائر ما هي إلاّ ولاية من ولاياتها لم تتحرك بتلك القوة التي تحركت بها ضد الحملة على مصر بل اكتفت بمحاولات دبلوماسية جد هزيلة لمنع الاحتلال الفرنسي للجزائر. كما أنّ محمد على بشا حاكم مصر لم يرد الجميل للجزائر بل نجده على العكس من ذلك يقدم خدمة كبيرة جدا للفرنسيين وذلك عندما وجه قوّاته العسكرية نحو بلاد الشام بهدف إخضاعها له وتكوين إمبراطورية عربية و يبدو أنّ هذا العمل الذي قام به محمد علي باشا في بداية الثلاثينيات من القرن التاسع عشر هو الذي منع الدولة العثمانية من تقديم الدعم المادي اللازم للجزائر بهدف صد الحملة الفرنسية بسبب توجيه جلّ اهتماماتها للمشكل الذي خلقه محمد علي في منطقة الشام.

2. تحرك بريطانيا بكلّ قوّة لإفشال الحملة منذ بدايتها على الصعيد الدبلوماسي وذلك بالضغط على الدولة العثمانية لتعلن الحرب ضد فرنسا. وعلى الصعيد العسكري بإرسالها الجزء هام من أسطولها إلى عرض السواحل المصرية منتظرا وصول الأسطول الفرنسي بهدف تدميره أو على الأقل عرقلت تحركاته، و هو ما حدث بالفعل إذ بمجرد نزول الحملة على الأراضي المصرية بأقل من شهر جرت معركة عنيفة بين الطرفين البريطاني والفرنسي في منطقة أبي قير في 1 أوت 1798، وكانت نتيجتها تدمير الأسطول الفرنسي، وبذلك تمّ قطع كلّ اتصال بين قيادة الحملة الفرنسية وباريس، مما دفع بنابليون إلى الخروج من مصر نحو بر الشام، وهذا خلق ارتباكا كبيرا في أوساط القيادة العسكرية الفرنسية مما جعل العسكريين الفرنسيين لقمة سائغة

في أيدي المقاومين المصريين الذين تمكنوا من قتل القائد الذي استخلفه نابليون على مصر عند خروجه منها.

3. تجمع ثلاث قوّى عسكرية ضد الجيش الفرنسي في مصر ومحاصرته هناك وهي القوّات العثمانية والبريطانية والروسية، وهذا أربك كثيرا الجيش الفرنسي في مصر مما أرغمه على الاستسلام والخروج من مصر خلال سنة 1801، وبذلك فشلت الحملة.

والشيء الملاحظة هو عدم حدوث أي شيء من كلّ هذا مع الحملة الفرنسية على الجزائر، فالمعارضة البريطانية للحملة كانت شكلية فقط ولم تتعد حدود الاحتجاجات الدبلوماسية فقط فمثلا عندما كانت فرنسا تحضر لحملتها على الجزائر كتب الدوق وينجتون– رئيس وزراء بريطانيا لسفيره في باريس يطلب منه أن يعمل لإقناع بولينياك بأن يصدر بيانا تتعهد فيه الحكومة الفرنسية بأن لا تثبت النفوذ الفرنسي في الجزائر، وبعد احتجاجات ومناورات من بريطانيا فنعت بوعد شخصي من الملك شارل العاشر مؤاده أن فرنسا لا تنوي الاحتفاظ بالجزائر بعد النصر" ولقد ظل الموقف البريطاني يتراوح في مكانه إلى غاية رضوخها للأمر الواقع سنة 1836 .

الخلاصة

إنّ الدارس لهذا الموضوع يمكن له الخروج من خلاله بعدّة نتائج أهمّها:

1. كلتا الحملتين حدثنا في ظروف متشابهة في كلتا الدولتين، وهي تتمثل في وجود سلطة حاكمة أهملت شؤون الرعية، وكان همّها الوحيد هو احتكار أمور السياسة والحرب. والتشبث بالكرسي والصراع من أجله، وتركوا الخدمات العامّة دون رعاية مثل التعليم والشؤون الصحية والاقتصادية على اعتبار أنّها من مسؤوليات الرعية.
2. كان حكام مصر والجزائر على علم بالحملة قبل حدوثها، ولكن لم يعملوا أي شيء لمواجهتها، مثل تحصين المواقع التي كان من المفترض أن تنزل فيها الحملة، بل والأكثر من ذلك أنّ هؤلاء

أصابهم الغرور بقوّتهم– الخرقاء– مما زاد من حدّة الكارثة، ولكن اللوم هنا يكون أشد على حكام الجزائر الذين لم يأخذوا العبرة من الحملةالفرنسية على مصر، فلو قام هؤلاء الحكام بدراسة تلك الحملة واستخلصوا منها العبر لمكنهم من تفادي الكارثة.

3. تسمية الجيش الذي شارك في الحملة على مصر بجيش الشرق يدل على رغبة فرنسا في احتلال كامل الشرق والسيطرة عليه، والجيش الذي شارك في الحملة على الجزائر باسم جيش إفريقيا، يدل على الرغبة الفرنسية في احتلال كامل إفريقيا والسيطرة عليها.
4. الحملة الفرنسية أعطى لها بعدا حضاريا علميا أكثر من البعد العسكري – وأن كان ذلك شكليا فقط– فلقد أحضر نابليون معه مائة واثنان وعشرون عالما في جميع التخصصات، وبمجرد وصوله إلى القاهرة أسس مجمعا علميا على غرار المجمع العلمي الفرنسي، ويهدف هذا المجمع إلى تقدم العلوم والمعارف في مصر، والبحث والدراسة في موضوعات الطبيعة والصناعة والتاريخ، أي على العموم كان نابليون يحلم بأن يحتل مصر علميا وحضاريا وتركيز الوجود الفرنسي هناك بهذه الوسيلة واعتبار الوسيلة العسكرية ثانوية إلاّ أنّه فشل في ذلك فشلا ذريعا، ويبدو أن هذا هو الذي جعل قيادة الحملة على الجزائر تعتمد على الوسيلة العسكرية أي إعطاء بعد عسكري للحملة، وتركيز الوجود الفرنسي بالوسيلة العسكرية ثم بعد ذلك يتم التفكير في إتباع الوسيلة الحضارية والعلمية.
5. محاولة الاستعمار الفرنسي توظيف الإسلام في خدمة مصالحه وأغراضه في كلتا الحملتين، ولكن هذا التوظيف يدل على فهم الغرب الخاطئ للإسلام إذ اعتبروه دينا قدريا يطلب من معتنقيه الخضوع، ولكنّ الحقيقة هي عكس ذلك تماما و الدليل هو كون هذا الدين كان المحرك الأساسي لكلّ الثورات الشعبية التي حدثت ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

الإحالات

[1]الدكتور عبد العزيز نوار: تاريخ العرب المعاصر، مصر والعراق، (دار النهضة العربية، بيروت، 1973)، ص 72-73، د/ محمد بديع شريف وآخرون: دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة (دار اقرأ – بيروت، 1984)، الطبعة الثانية، ص 237-240.

[2] عبد العزيز نوار، ص 74.

[3] ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة (1798-1939) (دار النهار للنشر – بيروت 1973)، الطبعة الثالثة، ص132.

[4] محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي (دار النفائس، بيروت 1983)، الطبعة الثانية، ص373.

[5] عبد الرحمان الجبرتي: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (دار الجيل، بيروت، 1978)، ط2، ج2، ص 179، 180.

[6] أنظر محتويات البيان كاملا في المصدر السابق، ص 182-184.

[7] المصدر نفسه، ص 238-239.

[8] جون .ب.وولف: الجزائر وأوربا، ترجمة أبو القاسم سعد الله، (المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986)، ص442.

[9] إبراهيم لونيسي: الرد الشعبي على سياسة الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830-1847)، جريدة الشعب 5 و6 جويلية 1993.

[10] انظر البيان كاملا في أبو القاسم سعد الله : أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر(دار الغرب الإسلامي بيروت ،لبنان2005 ج1 ، ص 277 ــ280.